

كاتب نمساوي يصف رحلته بالسيارة إلى المملكة قبل ستين عاماً

ملك في الشرق

عرض: أسامة أمين



الكاتب النمساوي ماكس رايش ألف كتاباً بعنوان: «ملك في الشرق - بالسيارة في السعودية»، نشره في العاصمة النمساوية فيينا عام ١٩٥٤م، وفي العاصمة الألمانية برلين في عام ١٩٦١م، ورغم مرور عشرات السنوات على نشره، فإنه بقي - على حد علمي - بلغته الألمانية، ولم يترجمه أحد إلى اللغة العربية، كما لم يصدر عنه ولو حتى مقال تعريفى حتى اليوم، حتى نرى الصورة التي نقلها عن المملكة وشعبها إبان فترة حكم الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ثاني ملوك المملكة العربية السعودية، الذي التقى بالمؤلف، واستضافه ثلاثة أيام في الرياض، رغم دخوله المدينة دون الحصول على تصريح مسبق بذلك.





المؤلف بدأ رحلته إلى المملكة في عام ١٩٥٢م والطبعة الأولى للكتاب كانت عام ١٩٥٤م

زاد الرحلة

للكتاب، صورة يظهر فيها رجلان يجلسان على بساط فوق الرمال، وخلفهما سيدة جالسة بجانب حمار، ورجل يأتي من بعيد، وفي الخلفية بيوت مبنية بالطوب اللبنى، أو ربما أحد القصور المنال، وإذا حصل على رفض، آنذاك، وعلى الغلاف الداخلي للكتاب رجل وجمل وبرج في منشأة نفطية. يسعى للحصول على تصريح

من هو ماكس رايش؟ المؤلف واسمه بالكامل ماكسميليان فيليكس جوتفريد رايش، من مواليد منطقة شمال تيرول الواقعة في النمسا، في عام ١٩١٢م، لأب من كبار التجار والملاك للأراضي الزراعية، وأم ورثت عن أسرتها فندقاً، درس العمارة والتجارة العالمية، وحصل على الدكتوراه من جامعة فيينا في عام ١٩٣٨م، وخاض الحرب العالمية الثانية منذ عام ١٩٤٠م، في اليونان وأفريقيا وإيطاليا، وأصيب بشظايا قنبلة في عام ١٩٤٤م، وترك ساحة المعركة، وتزوج في عام ١٩٤٩م، واصطحب زوجته في العديد من أسفاره في الفترة الأخيرة من حياته، سافر من المغرب حتى وصل ليبيا قاطعاً حوالي ١٠٠٠٠ كيلومتر بدراجة نارية، ثم زار شبه القارة الهندية انطلاقاً من النمسا بدراجة نارية، باستخدام الطرق البرية فقط، وقطع مسافة تتوق ١٣٠٠٠ كيلو متر، في فترة زادت على الستة أشهر، وأثناء الحرب العالمية الثانية كان يفتش على الطائرات القابعة على الأرض، وعن مخازن الطعام والبنزين التابعة للقوات الإنجليزية، في الصحراء الليبية والمصرية، وهرب بعد ١٨ شهراً من أفريقيا باستخدام قارب حتى وصل إلى صقلية، وفي عام ١٩٥٢م، أعلن رغبته في زيارة الكويت، لكن المملكة كانت وجهته الحقيقية التي لم يكن يعلنها، لأن الحصول آنذاك على تأشيرة دخول المملكة كان بمثابة الحلم الذي يصعب تحقيقه.

وصف الكتاب

النسخة التي تمكنت من الحصول عليها، من الطبعة الألمانية الصادرة في عام ١٩٦١م، لكن ما أثار دهشتي أن المؤلف يذكر أنه بدأ رحلته إلى المملكة في عام ١٩٥٢م، وأن الطبعة الأولى للكتاب كانت في عام ١٩٥٤م، وأنه التقى الملك سعود بن عبدالعزيز، ووثق ذلك فعلاً بالصور في الكتاب، لكن المراجع تشير إلى أن الملك سعود تولى الحكم في ١١ نوفمبر ١٩٥٢م، أي أن هذه المقابلة كانت في بداية فترة حكم الملك سعود، حتى يتمكن الكاتب من تأليف الكتاب، ونشره بعد ذلك فوراً.

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة، مقسمة إلى ٢٨ فصلاً، وفيه ٢٥ صورة التقطها المؤلف، أو مرافقه الطبيب الألماني رولف هيك، أو حصل عليها من شركة أرامكو. على الغلاف الخارجي الملون

ولا يخلو الوصف أحياناً من بعض السخرية، مثل طلب المؤلف من موظف وزارة الخارجية النمساوية، أن يستخدم أكبر الأختام لديه، حتى يعطي انطباعاً بالهيبة، وحكايته عن مدير فندق كبير في فيينا، رغب في زيارة تركيا في وقت الدولة العثمانية، والتي كانت هي وروسيا فقط، تشترطان الحصول على تأشيرة، فحمل معه قائمة الطعام الأنيقة من الفندق، والتي كانت تحمل فوق الغلاف صورة تاج القيصر، وداخلها كلمات بالحروف اللاتينية، فاعتقد حرس الحدود الأتراك الذين كانوا لا يقرأون هذه الحروف، - لأن اللغة التركية كانت تكتب آنذاك بحروف عربية-، أن مدير الفندق الواقف أمامهم هو شخص دبلوماسي، لكن إحقاقاً للحق لم يرد في كلام رايش عن المملكة وشعبها إلا كل احترام وتقدير، وتفهّم لكل ما يراه، مهما اختلف عن الثقافة الأوروبية التي ينتمي إليها الكاتب.

في الطريق

يستغرب الكاتب من ضحالة معرفة العرب من غير الخليجيين بالأوضاع في المملكة، ففي السفينة التي أقلته إلى بيروت، يسأل الركاب اللبنانيين والسوريين والعراقيين عن المملكة، فيتبين له أنهم لم يزورها أبداً، ولا يعرفون شيئاً عن «هذا البلد العجيب»، سوى أنه صحراء لا أول لها ولا آخر، وأن الأمريكيين عشروا فيه على النفط، وأن هناك قطاراً استثناءً، على المواطنين في العاصمة الرياض، وأن الملك عنده ٤٣ أخاً ومثلهم من البعثات الدبلوماسية، وأن الأخوات، وأن الحج أصبح أكثر يسراً وأماناً منذ قامت الدولة السعودية، ويعلق الكاتب قائلاً: «يا قلة ما عرفوا عن هذا البلد، ويا لبعدهم عن الحقيقة، كما سأعرف فيما بعد».

ويقول إن من يعرفون المملكة بحق، هم من يسمح لهم الملك بدخول بلاده والبقاء فيها، وهم الدبلوماسيون المعتمدون لدى الحكومة السعودية، والذين لا يقيمون في العاصمة الرياض، بل أمر الملك أن يكون مقر إقامتهم في جدة. ويعرف الكاتب أن موظفي أرامكو القادمين للعمل في المملكة، يتوجهون أولاً إلى لبنان لحضور دورة تستمر عدة أسابيع، يتعلم خلالها الأمريكي وغيره من الجنسيات الأخرى، أن يتخلص من أي شعور بالتعالي على الآخرين، أو بالتفوق عليهم، ويتم ترسيخ قناعة أن المواطن السعودي، حتى ولو كان عاملاً بسيطاً، فهو «السيد» في بلاده، كما يتعلم أنهم جاءوا كمهندسين أو فنيين، وأنه لا يحق لهم كتابة أي شيء سوى الخطابات الشخصية، لأنهم لم يأتوا للعمل كصحفيين هواة، يكتبون عن المملكة، كما يتعلمون أن من يخالف تلك التعليمات يغادر المملكة في أول طائرة متوجهة إلى القاهرة، ليعود من حيث أتى.

في المناطق الصحراوية، أطلق المؤلف على سيارته هذه اسم «صديقي»، معتبراً أنها قد تثير الاهتمام في المملكة. وحصل من ديوان المستشارية النمساوية ومن وزارة الخارجية، على خطاب بالتوصية عليه، يتضمن أنه يقوم بتجربة هذه السيارة الجديدة، ذات المواصفات المميزة للدول العربية، والحاجة للتناقص مع المهندسين السعوديين حولها، للاستفادة من معلوماتهم.

دخول المملكة من إحدى الدول المجاورة لها، وحصل على تأشيرات كل من: سوريا والأردن والعراق والكويت، وسعى لتسليح نفسه بكل ما يمكن أن يساعده في تحقيق هذا الهدف. زودته شركة ينباخ تيرول بسيارة جديدة، تحتوي على غرفة معيشة، وعلى كل ما يحتاجه المرء، من فراش للنوم، إلى طاولة للطعام، إلى حمام، ويتم فيها تبريد المحرك بالهواء، وليس بالماء الشحيح



يا قلة ما عرفوا عن هذا البلد
«السعودية»، ويا لبعدهم عن الحقيقة،
كما عرفت فيما بعد

يتخلل وصفه للأحداث الكثير من المعلومات عن المملكة وشعبها وتاريخها، وعن الإسلام، وكثير من المعلومات

العقوبات تصل إلى بتر الأعضاء والجلد والرجم، ويتساءل عن سبب هذه الصورة السلبية التي يرسمها البعض للأوضاع في المملكة، ويقول إنه توصل إلى أن الكثيرين يشعرون بالحقد الدفين تجاه السعوديين البسطاء، الذين أصبحوا بين يوم وليلة محظوظين باكتشاف النفط الوفير في بلادهم. ويتوصل إلى أن عرب الشمال في سوريا والأردن لبنان، يسعون من خلال التشبه بالحياة الغربية، أن يظهروا تحضرهم، وانتماؤهم إلى العالم الحديث، أما السعوديون فيرون أن الحضارة بمعناها العميق مرادفة للتقاليد، والحفاظ على التراث، والاعتزاز بالقيم المتوارثة.

ويشرح للقارئ أن سبب إصراره على زيارة المملكة، أنه زار الكثير من الدول العربية، وتعلم حب العرب، لكنه يريد أن يصل إلى قلب هذا العالم العربي، لينهل من المعرفة عنه مباشرة، وليس نقلاً عن آخرين، يرسمون ملامح الصورة بانطباعات شخصية، لا علاقة لها بالموضوعية، على عكس ما يسعى إليه في كتبه، من نقل الحقيقة، والصورة الإيجابية،

النابعة من حرصه على توضيح الخلفيات للقارئ، فيستوعب ما يحدث في هذا الركن من العالم، وينقله من خلال عرض متوازن. وبعد توسط الكثير من الشخصيات اللبنانية، يحصل الكاتب على تأشيرة لدخول المملكة من جدة، ولمدة ثمانية أيام فقط، وهو ما لا يتفق مع هدفه في دخول المملكة من الحدود البرية بالسيارة، والسفر حتى يصل إلى الرياض، ومن بعدها الكويت، وهو ما لا يمكن القيام به خلال هذه المدة، خصوصاً إذا علمنا أن محرك سيارته ٢ سلندر، وبقوة ١٨ حصاناً فقط، فيقرر رغم ذلك دخول المملكة من الحدود البرية الأردنية، وحصل على خطابات توصية للأمريكيين العاملين في شركة أنابيب نقل النفط لمسافة ١٧٠٠ كيلو متر من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط، وفي شركة أرامكو، ليوفروا له المبيت، ويساعدوه على القيام برحلته.

في أراضي المملكة

تبدأ الرحلة من الحدود الأردنية، وتسير بمحاذاة خط الأنابيب عبر البلاد العربية، من طريف إلى وادي بدنة، ثم إلى رفحا،

ثم الدهناء، والقيصومة، ورأس مشعب، والظهران، والهفوف، والحرص، ثم الرياض، ومن العاصمة السعودية إلى الهفوف، ومن ثم إلى الكويت.

أسلوب الكاتب مشوق، إذ إن هناك دوماً أحداثاً تشد القارئ، تشمل وصف الطريق، والأشخاص الذين يلتقي بهم، وأسلوب معيشة الأمريكيين وغيرهم من الأجانب في معسكرات أرامكو، وشركة أنابيب نقل النفط، ولقاءه مع أمراء المناطق، ثم تنويع الرحلة بلقاءه مع الملك سعود.

ورغم أنه في بعض المواضع يحاول الربط بين ما يراه، وبين عالم ألف ليلة وليلة، إلا أنه لا يسعى لتشويق القارئ الأوروبي، عن طريق الاستهزاء من نمط الحياة المختلف، أو التركيز على الاختلافات، أو التشنيع على ما يراه، أو ترسيخ الصورة الساذجة للعربي الذي لا يملك سوى المال، بل نجده يوفي بعهده بأن يكون متوازناً في وصفه. وهو الأمر الذي يمكن أن نلمسه في صورة الإنسان السعودي.

صورة السعودي قبل أكثر من نصف قرن

يقول الكاتب إن عدم تعرض المملكة للاحتلال على مر العصور، أو حتى الوصاية الأجنبية عليها، باستثناء التواجد العثماني في بعض المناطق، جعل الإنسان السعودي عزيز النفس، ويشير إلى أن الأطفال السعوديين غير أقرانهم في أي دولة عربية أخرى، حيث لا يهرولون خلف السياح، ليطلبوا منهم البقشيش، وهو الأمر الذي

لا يعرف سلبياته، إلا من تعرض لهذا الموقف.

وينبه إلى ما سبق الإشارة إليه من أن السعودي لا يرى الحضارة في التشبه بالغرب، بل بالاعتزاز بالتقاليد، وهو الأمر الذي يجعله لا يشعر بأنه أقل من أي غربي، بل يكون شديد الحساسية في التعامل مع الغربي، ولا يتحمل أي نقد، وحتى لو كان مجرد نظرة عتاب، الأمر الذي جعل بعض مسؤولي أرامكو يقولون للمؤلف إن التعامل مع الموظفين السعوديين، يتطلب رهافة في الإحساس، وحرصاً شديداً،

«مثلما يتعامل الإنسان مع البيض النئى»، والتأكيد على أهمية أن تكون العلاقة بين المسؤول الأمريكي والموظف السعودي، علاقة زمالة، وليست علاقة رئيس بمرؤوس، خصوصاً وأن كل شخص سعودي يعتبر نفسه ابناً للملك، يستطيع الدخول عليه في كل وقت، ويجد آذاناً صاغية لطلباته.

وعن علاقة السعودي بالدين، يقول إنه لمس ورعاً شديداً لدى الإنسان السعودي، فإذا كان بعض العرب في دول أخرى يقولون (إن شاء الله)، دون أن يعنوا بها الالتزام، فإن السعودي يقولها من قلبه، ويصف كيف شعر بقلبه يخفق بشدة، وهو يرى ١٥٠ شخصاً يؤدون الصلاة في الصحراء، في خشوع وورع، بملابسهم البيضاء، ولحاهم الطويلة.

إلا أنه أشار أيضاً إلى أن بعض الموظفين يسيئون استغلال الصلاة، فإذا لم يعجبه أي شيء، ترك العمل وتوجه للمصلى، خصوصاً وأن الملك أمر بأن

الشخص السعودي نجيب وسريع البديهة، وذو ذاكرة قوية جداً، يحفظ الطريق بسرعة، ولا ينسى ما تعلمه مرة أبداً

ما أصابته مصيبة، فإنه يقول «قدّر الله وما شاء فعل»، وذلك لأنه يرى الكون من منظر إلهي، الأمر الذي يبهّر المؤلف. ويعرب المؤلف عن اعتقاده بأن سبب التفاهم الكبير بين الأمريكيين وبين السعوديين، أن الأمريكيين يحترمون كل ما يصدر إليهم من تعليمات وتوجيهات سعودية، بل إنهم أكثر التزاماً بها من السعوديين أنفسهم، ويسعون للحفاظ على سمعتهم الطيبة بأي شكل، وعلى عدم الوقوع في أي خطأ أو تجاوز، ويشعرون أنه طالما منحهم الملك ثقته، فعليه أن يكونوا جديرين بها، والسعوديون من جانبهم يثقون في القدرات التقنية للأمريكيين، ولا يستغربون من أي شيء، فيجدون مثلاً أن قدرة الأمريكيين على تحقيق أي إنجاز تكنولوجي مهما كان كبيراً، أمر بديهي، لأنهم سادة التكنولوجيا في العصر الحديث.

ومن الطرائف التي ينقلها عن المسؤولين الأمريكيين في شركة أنابيب نقل النفط، أن الشركة كانت تعاني من الثقب التي تحدث في الأنابيب، لأن الغزلان تقف في ظل الأنابيب الضخمة، فيقوم الصيادون السعوديون بإطلاق النار على الغزلان، فيصيبون الأنابيب أيضاً، وعندما اشتكت الشركة إلى الملك سعود، رد عليهم باسم، بأنه لا يستطيع أن يمنع الغزلان من الوقوف في الظل، ولا منع الصيادين من إطلاق النار على الغزلان، وأن الحل الوحيد هو أن تقوم الشركة، بإنتاج أنابيب شفافة، لا ظل لها.

وعن مهارة الغواصين السعوديين، يقول الكاتب إن قبيلة بني مرة معروفة بقدرة أبنائها على توسيع آبار المياه، وعلى عكس غواصي اللؤلؤ، الذين يأخذون نفساً عميقاً قبل الغوص، ثم يخرج الهواء على مراحل، فإن غواصي بني مرة، يقومون بالتخلص من كل الهواء الذي في رئتهم عن طريق الزفير، ثم يغطسون لأعماق كبيرة، لأن الجسم يكون عندئذ شبه خال من الهواء، ويبقون لمدة حوالي ثلاث دقائق، لتوسيع البئر.

ويقول الكاتب إنه رغم انضمام المملكة لاتفاقية منع الاتجار بالرقيق في عام ١٩٢٦م، فإن بعض الأثرياء من الدول العربية المجاورة، كانوا يأتون لتأدية فريضة الحج، ومعهم العبيد، فيبيعون قسماً منهم، وينفقون

تتضمن عقود العمل بندا يتيح لهم الصلاة متى شاءوا، إلا أن الشركات الأمريكية استطاعت أن تتوصل إلى اتفاق مع الحكومة السعودية، ألا تزيد فترة الصلاة عن ساعتين خلال فترة الدوام الذي يستمر ثماني ساعات. ويرى أن السعوديين يقدّرون الموظف الأمريكي عن غيره من الجنسيات، حيث يحصل على راتب شهري يتراوح ما بين ٨٠٠ - ١٥٠٠ دولار أمريكي، في حين يتراوح الراتب الشهري لنظيره الهولندي أو الإيطالي أو اليوناني أو الدينماركي ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ دولار فقط.

ويقول إنه لم يجد آنذاك أي سعودي في مناصب قيادية، إلا أن الأمريكيين أوضحوا له، أن الملك أمر بأن يتم تعيين ١٠ موظفين سعوديين مقابل كل موظف من الخارج، وأن ينقلوا معلوماتهم للموظفين السعوديين، مما جعل عملية تحملهم للقيادة، مسألة وقت فقط.

ويصف السعودي بالصدق الوفي، ويضرب على ذلك مثلاً بالصدقة بين أمير وادي بدنة السعودي، وبين شيخ بني صخر في الأردن، فرغم انقطاع الأخبار بينهما لسنوات طويلة، فإن الأمير السعودي أكرم المؤلف، لأنه قال له إنه قادم من طرف صديقه الأردني، ويقارن ذلك بالوضع في أوروبا، حيث أدى إيقاع الحياة العصرية السريع، إلى انتهاء الصداقات، إذا توقفت اللقاءات أو الخطابات.

ويتحدث عن عشق السعودي للصيد، واهتمامه بتربية الصقور، رغم اعتقاد المؤلف ببشاعة أسلوب الصيد، من تجويع الصقر لعدة أيام، قبل إطلاقه لصيد الغزال، حيث يمسك قرون الغزال بأظفاره، ثم يهجم بمنقاره الحاد على عيون الغزال، حتى تفقد الرؤية، وتسقط على الأرض تتلوى من الألم، فتأتي كلاب الصيد لتكمل المهمة القاتلة، وقدرة الصقور على اصطياد كميات ضخمة من طيور الحبارى.

ويستغرب من أن السعودي إذا أخطأ في استخدام المعدات وأصاب نفسه في يده مثلاً، فإنه يحمد الله، ويشكره، حتى إذا

وتنقل عن مسؤول أمريكي في شركة الأنابيب، عشق السعوديين لقيادة السيارات، حتى الشاحنات العملاقة المصممة خصيصاً لشركة أرامكو، يقومون بقيادتها



من ثمنهم على رحلتهم، كما كانت سفن القراصنة تأتي من عمان وقطر، وعلى متنها العبيد والإماء، مع التأكيد على أن معاملة العبيد في المملكة، أفضل من معاملة العاملين في المنازل في أوروبا،

أما الملك سعود بن عبدالعزيز، فقد كتب عنه رايش بمنتهى الإكبار والاحترام والتقدير والامتنان، فهو رجل تحمل الكثير منذ صغره في مشاركة أبيه الملك عبدالعزيز مؤسس الدولة، في أعباء مسؤوليات الحكم والحرب، ولكل تصرف يبدر من الملك دلالات، ويجسد الحكمة، والكرم العربي، فحين أهدى الكاتب ساعة ذهبية، فإنما أراد أن

يوصل له رسالة بأن عليه أن يحرص على الوقت، وألا يبقى في الرياض أكثر من ثلاثة أيام، وحين أرسل معه مترجمه الخاص عبدالله بالخير، شرح لهم خطوات التوسع في التعليم المدرسي، مشيراً إلى أن وجود ستة ملايين سعودي أمي، يعادل نسبة صغيرة من الأميين في العالم، البالغ عددهم مليار شخص، حسب إحصائيات اليونسكو.

كما يشير إلى أن الملك سعود لم يكن يأخذ معه حراسة كبيرة، بل عدد قليل من الحراس، وبتسليح رمزي، لأنه كان عادلاً لا يخشى شيئاً، على عكس شخصيات في دول عربية أخرى، أقل منه مكانة بكثير، لكنها لا تتحرك بدون سيارات مصفحة.

لكل جواد كبوة

لا يخلو الكتاب من بعض الأخطاء، على الأقل من وجهة

نظرنا نحن العرب المسلمين، ليحكم على المسلمين، أو القول بأن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان ذكياً، لأنه اختار تمارين رياضية مفيدة، في تأدية الصلوات الخمس. كما أن اعتباره يوم الجمعة «يوم الله»، يجعل القارئ يعتقد أنه مثل السبت عند اليهود، حيث يحرم القيام بأي عمل، في حين أن المسلمين يجوز لهم العمل طوال اليوم، باستثناء وقت الجمعة، لكن هذه الأخطاء لا تشغل مجتمعة صفحة واحدة من بين

١٦٠ صفحة، هي عدد صفحات الكتاب، ومادام المؤلف قد مات، والكتاب اختفى من المكتبات، فليس بوسعنا تصحيح الأخطاء، لكن لعلنا نحرص في المرات القادمة، عند قدوم أي صحفي إلى المملكة، على تزويده بمعلومات دقيقة وموضوعية ومحايدة، تعينه على القيام بمهمته بدون كبوات.

وإذا كان هذا المؤلف قد مات، فإنه ترك متحفاً فيه كل السيارات والدراجات النارية والمعدات، التي استخدمها في رحلاته، وجرى عرضها في الفترة من عام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٧م، في مدينته إنسبروك النمساوية، ثم جرى نقلها ابتداء من عام ٢٠٠٨م، إلى مدينة بوزن في تيرول الجنوبية، في أرشيف رايش- الشرق، أي أن الاهتمام بما قام به، لم يتعرض للنسيان.

ربما وجد أحد طلاب قسم علوم اللغة الألمانية في جامعة الملك سعود في هذا الكتاب، ما يستحق أن يجعله بحثاً للتخرج أو للماجستير، أو تجد أي جهة ثقافية في المملكة فائدة من ترجمته، وبذلك تكون مجلتنا (الدبلوماسي) قد أسهمت في التعريف بهذا الكتاب وهذا المؤلف.